المحاضرة الحادية عشر أدب مقارن الصف الرابع: د. جاسم الصميدعي

الف ليلة وليلة في الادب الفرنسي:جزء ٣

من المحتمل، إذن، أن يكون فولتير قد تأثر بتلك الصور التي عرضتها "الليالي"، عن المرأة الشرقية، والتي تبالغ في التحذير من ضررها ومكائدها)الخيانة/ الحقد/ الانتقام/ القسوة...).- فمغامرات زديج الغرامية تذكرنا بمآسي بعض أبطال "ألف ليلة وليلة"، الذين تعذبوا كثيراً في الحياة بعد اكتشاف خيانة زوجاتهم لهم. ألم يكتشف (شاه زمان) أنَّ زوجته تخونه –أثناء غيابه– مع عبد أسود؟ ألم ير بعينيه زوجة أخيه (الملك العظيم شهريار)، تقيم حفلات جنسية مع العبيد؟.. ألم يكتشف الملك الجبار صاحب الجزر السود أنَّ زوجته تفضل ممارسة الجنس مع عبد من عبيده؟....

ولعلّ النموذج النسوي الذي يتكرر مراراً، في قصص فولتير، هو نموذج المرأة الفاتنة التي تقوم بدور الوسيط لحل المشاكل العويصة عن طريق الإغراء والجنس)مثل ألمونا التي أنقذت زديج بعد أن ألهبت شهوات الكهان ومكرت بهم أشدّ مكر). ويبدو أنّه اهتمّ بتوظيف هذا النموذج الذي انتشر في فرنسا، في القرن الثامن عشر، لفضح بعض الأرستقراطيين ورجال الكنيسة الذين تركوا واجباتهم وانجرفوا في تيار البذخ والترف. فهم –في نظره– أنانيون، شواذ، يمارسون الجنس ببشاعة مع الفتيات الفقيرات، ويستغلون الفئات الشعبية المحرومة، ويتهمون المفكرين بالكفر والإلحاد:

قالت ألمونة لرئيس الكهنة: "امض أنت على براءة زديج". قال الكاهن: "مع السرور بشرط أن يكون عطفك ثمناً لعفوي". قالت ألمونا:"إنك لتغلو في تشريفي، فتفضل بزيارتي إذا غربت الشمس... فستجدني على إيوان وردي اللون، وستصنع بجاريتك ما تشاء..."، ثم خرجت ومعها الإمضاء، وتركت الشيخ يصرعه الحبّ، وأنفق سائر اليوم في حمامه، وانتظر وقد كان يفقد الصبر.....

واللافت للنظر أن فولتير لا يتعرض إلاَّ نادراً لتحليل نفسية المرأة الشرقية. فهو مولع بالأفكار أكثر من ولوعه بالتحليل النفسي. وهذه الأفكار هي التي تحدّد اختياره للأعمال والأحاديث التي

تعبر عنها شخصياته الأدبية .لهذا السبب جاءت صورة المرأة الشرقية، في قصصه، رمزية– اصطلاحية، تستهدف طرح قيم أخلاقية موروثة، صورة مركبة من تيمات شرقية قديمة وتيمات فلسفية تنويرية. يقول جستاف لانسون:

"إنَّ فولتير فنان أكثر من عالم النفس... فكل صورة من صور شخصياته متحركة، على حسب ما يريد هو، تسلك المسلك المعبر عن تطلعهم الدائم إلى السعادة وهو المسلك الذي يوحي بالبواعث الدافقة، وتحمل كلّ منها سمة الحالة الخاصة بها أو لهجة الأمة التي هي منها... وتتمثل هذه الشخصيات في الرسوم التي يصورها حافلة بجميع الأفكار التي يكونها عن المجتمعات المنتمية إليها... وهذه الأفكار هي التي تحدّد اختياره للأعمال والأحاديث التي تعبر عنها شخصياته الأدبية...."–

ج . القضاء والقدر:

لقد أدرك زديج، في وقت مبكر، أنَّ ثمة قوة خارقة تتحكّم في حياته وتسيطر على كل حركاته، تتلاعب به وكأنه دمية متحركة، وتوجهه نحو مصير محتوم. وكان يفكّر، باستمرار، فيما قضي عليه من شقاء وآلام، مستعرضاً، في ذهنه، مصائبه كلها الخاضعة للقضاء الرباني: لقد أحبّ سميرة، لكنها تخلت عنه وتزوجت بعدوّه، واختار عزورة زوجاً له، وهي أحكم بنات بابل،لكنها لم تتردّد في قطع أنفه... سجن وتهيأ لاستقبال الموت بابتسامة، وإذا ببغاء الملك تطير من إحدى شرفات القصر فتظفر على شهادة براءته.... وبمشيئة الأقدار عيّن وزيراً في المملكة، فأحبّ الملكة حباً كان أصل بلائه، فاضطر إلى الهرب والقتل، وبيع رقيقاً فعانى العبودية، ثمّ ظهر فضله في حلّ بعض القضايا، فرفع إلى أعلى المراتب... وخضع لمجازفات عديدة حركتها حوادث تافهة في ظاهر الأمر، وكوفئ دوماً بالشرّ على الخير.... وكل ذلك بفعل تلك القوة الخالدة التي تدبّر حياة البشر في كلّ مكان...

لقد بذل زديج جهداً فكرياً كبيراً لتفهّم أهمّ القضايا الوجودية وخاصة قضية "القضاء والقدر"، التي كانت تؤرقه بوصفها لاتخضع للمنطق.ومن الواضح أنّه عانى من ويلات الألم والعذاب والقلق إلى درجة أن تزعزع إيمانه بالأديان كلها، ورفض الرضوخ للحلول الميتافيزيقية الجاهزة التي بثها

رجال الدين في كل زمان. لقد أصبح يشكّ في جميع الوعود الدينية ويثور على هذا العالم السحري، الشديد التناقض، ويعترض علىهذه القدرة الإلهية القاسية التي تظلم دائماً الأخيار وتسبغ النعمة على الأشرار.... وراح يبحث –بدون جدوى– عن الأسباب الحقيقية التي تحرك الأقدار وتتحكم فيها.

ولم يجد زديج حلولاً لمشاكله الفلسفية وأسئلته الوجودية إلاّ في قلب الصحراء العربية. وهو يغادر بابل متجهاً نحو الجزيرة العربية، ناعياً على القدرة الربانية أنها تظلمه بدون مبرّر معقول، التقى بجسراد (رسول السماء، والملك الإلهي)، الذي تدخل في السياق القصصي (كما تتدخل الجان والعفاريت في حكايات ألف ليلة وليلة)، ليلقنه درساً في الحكمة الإلهية ويزوده بالحلول المقنعة التي بحث عنها في كل مكان.

"اعلم –يقول جسراد– أنَّ الأشرار أشقياء، دائماً، وأنهم محنة تمتحن بهم قلة من الأخيار مفرّقة في الأرض، وليس من شرّ إلا وهو مصدر الخير... والمصادفة لا وجود لها، فكل شيء إمّا امتحان، وإمّا عقاب، وإمّا مكافأة، وإمّا احتياط".

لقد هبط الملك الإلهي من أعلى عليّين، وفي يده "كتاب القدر"، ليعلّم زديج الضعيف (وهو في قلب الجزيرة العربية)، درساً في نظام الكون: تحدّث له عن العدل والأخلاق والخير وضعف الإنسان والرذيلة في بلاغة مؤثرة. وقد قال لزديج بعد أن نبتت في جسمه المهيب أجنحة أربعة:

"إنَّ الإنسان أقصر عقلاً من أن يفهم حكمة الخالق الذي أبدع العالم ووضع له ما يدبّره من القوانين، فلئن كانت الساعة تثبت وجود الساعاتي، فإنَّ العالم العجيب، الذي هو عالمنا، ينمَّ عن مشرع... هذا العالم –يقيناً– آلة جديرة بالإعجاب، وإذن، فإنّه في العالم خالق جدير بالإعجاب....".–

إنَّ هذا النقاش الذي دار بين جسراد وزديج يعكس بوضوح الروح الدينية السماوية٥٢–، بل يعبّر عن آراء الفلاسفة المسلمين الذين أسالوا حبراً كثيراً في موضوع "القضاء والقدر"، متسائلين عن مصير الإنسان: هل هو مسيّر أو مخيّر؟.. وأين تكمن حريته؟.. وكيف يجازى على

أعماله؟..... إنّه نقاش يسعد

القارئ عن الإنسان الديكارتي الحرّ والمسؤول عن نفسه. يقول جسراد:

"لقد خلق الله العديد من العوالم ليس منها واحد يشبه الآخر، وهذا الاختلاف العظيم آية على قدرته التي لا حدّ لها، فليس من ورقتين في الأرض ولا كرتين في حقل السماء، تشبه إحداهما الأخرى... وكلّ ما نراه على هذه الأرض قدر له مكانه حسب النظام الثابت الذي أبدعه القادر على كلّ شيء...."-